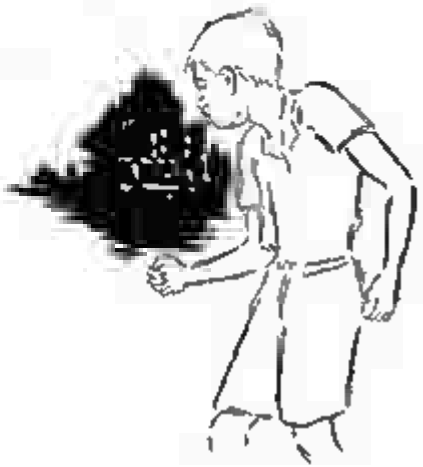

الشوق

بقلم : أحمد الخميسى

هل تعرفون الحزن ؟ الحزن المرهق الذى يتوه به القلب ..

هل تعلمون ما هو الألم ؟ الألم الكظيم الذى يترك فى النفس بقعا كالمرض ؟ .

هل كابدتم الشوق ؟ شوق صبى صغير ـ لم يتعد التاسعة ـ لأبيه ، لوجه أبيه ، لكفه الثقيلة ، لرائحة انفاسه ، للحديث معه ، هل جربتم الشوق ؟ هذا الشوق ؟

كان يسير فى المساء وقد تناثرت سحابات رمادية على صفحة السما .. الوقت حوالى العاشرة .. تكالب عليه الضيق وتضافر الألم فأخرجاه من البيت ـ أما الدمعة ـ فالدمعة التى تصمت طهر الصغير .. تلك الدمعة التى ترقرقت فى عين امه المكبة على الماكينة ذات الصوت المرعج ، ترثى ذكريات بهجة جميلة الحواشى .

أخرجه الصمت .. كل تلك الكآبة الموحشة التى كادت تخنقه بالحقيقة فخرج يستنشق الهواء بعيدا عن جو البيت .. هواء الشتاء البارد فى الشارع الممتد الطويل يطبق عليه ذاك المساء ..

من زمن بعيد .. منذ خمسة شهور هى عمر هذا الزمن البعيد .. اختفى أبوه فجاة ، عنه وعن أمه وأخيه وتلك الأخت الصغيرة ذات الجدائل الفاحمة السواد ، فقد تزوج من شابة صغيرة حلوة رغم كبر سنه ، وعرف بعدها هوان مكنه العديد من قريب له فكتب حقيقيا بقلم رصاص على ورقة صغيرة دسها فى كتاب مدرسى ، فقد كان الطريق ـ ان أراد ـ الى أبيه .. هناك يراه ويربه ان الشوق كامن فى الاعماق ، اتذكر العناق ؟ ليتك تدرك ماذا يعنى ان يعانق الابن اباه .. القبلة على الوجنة قبل النوم وفرح الحياة : واخضرار الحلم .. أبى .. يا أبى .. اين انت ؟ .. ابى .. الحياة من بعدك شىء يجثم على الصدر .. شىء

بئس من الألم .. باهتة وفيها اصفرار ، والليلة بعد الليلة تنوح كثاكلة الليالي .. معذبة طعينة .. والحزن .. الحزن يا أبي لو تدري هائر العمق في عيني أمي ..

من يومها وكلما اطلعت نفسه الشفافة وناءت بثقل المأساة ..

.. وكلما ضاق صدره بانطواء أخيه الأصغر .. انطواءه البائس الذليل الذي يبدو في جلسته وفي عباراته المقتضبة المخجلة ، من ذلك اليوم الذي ما عاد يسمع فيه ضحكات أخته الطفلة الجذلى الطروب ذات الجدائل الفاحمة السواد ، ولا تهتماتها الغياصة بالحياة ، وحين كان يسمع السؤال لا يموت على شفتيها . ماما .. أين أبي ؟ أين هو ؟ فأي أحزان كانت تتسكب في نفسه ، من يومها وكلما نهش الشوق بالشوق قلبه . أخرج العنوان .. الكلمات المتجاورة .. ولعص فيها ثم أطلق تنهيدة حقيقية حرى لا تصدر عن صبي في التاسعة ، وفي التاسعة فقط انصحته الأمور قبل الأوان ..

الشارع بارد صامت كجسد الميت .. يتعلت فيه بين كل آونة وأخرى . شخص مسرع ، يحوص رأسه بين كتفيه ، ولخطواته صدى .. والهواء يلدغ ساقي الصبي ، ونصف فخذيه العاريين ، بينما يداه مدسوستان في جيبي سرواله البني القصير ..

بجوار دار السينما الفخمة قام منزل اسمه مستطيلا .. هناك في الدور الرابع يسكن أبي .. نعم .. رفع عينيه العسليتين الى أعلى ـ وأسنانه تعتلك ـ ناظرا الى الشرفة التي ينبعث منها الضوء .. وارتعشت شفتاه .. أي احساس غريب أكد له أن أباه في تلك الغرفة في هذا الوقت ؟ .. هل هذه هي حجرة مكتبه ؟ أم الجلوس ؟ وهل يا ترى ما زال يجلس مستطحبا الى الخلف ويداه متشابكتين على ركبته ؟ طبعا .. هو يضحك الآن ؟ هه .. مم .. وهل يتناول عشاءه ؟ أما زال كما هو لم يتبدل ؟ .

الشوق الحار .. والنسمة الباردة تلسع خده .. يداه مدسوستان في جيبي سرواله .. نحيف قصير ممتلىء بالشوق والرغبة ..

ثقلت به القدمان أمام مدخل العمارة بلا ارادة ، كان شيئا قويا يجذبها .. تساءل .. هل يصعد كي يراه ؟ هو أبي ولا شيء في العالم يبرر ان يحرم الانسان نفسه من ابيه .. هل يصعد له ؟ .. هه .. نعم .. لا .. احس انه يغرق محتقا في «لا» ويطفو متشبثا الحياة في « نعم » .. نعم فلتصعد ، أصعد .. ؟ لا .. بل نعم .. الأمر بسيط ، أسرع على درجات السلم واطرق الباب والق بنفسك وكل حنينك ، واخلص الشوق في حضن أبيك منفجرا بالبكاء .. أيدرك

يا ترى كيف مر بعده اكتاب المساء ؟ لقد هجرهم ولم يفكر حتى فى السؤال .. حتى السؤال ، فكيف يذهب له بنفسه وماذا يقول ؟! انطحن كرياؤه حنينه ؟؟ ام يطحن الحنين تلك الكبرياء ؟؟ .

الشارع بارد صامت ، يردده كلمة «لا» مظم كأعمدتها ، والوقت يرحف .. فماذا بعد ؟ اية قرارات تلغى أخرى ، واية رفضات متناقضات تحدث النفس ؟؟

وامه .. كيف لها .. امه التى تشبه فى جسدها هذه السيدة المارة هناك متدثرة بمعطفها .. امه الجالسة الآن على الماكينة مستغرقة فى حياكة الثياب ، كم من آلام قد تجرعتها ، غرست فى قلبها مرارة الحرمان .. عاقم .. علقم الشوق ان لم يطفئه اللقاء .. علقم .. لقد هجرهم حتى دون السؤال .. ما ضره لو سأل ؟ لو فعل لأوجد المبرر كى اراه .. هل يعمد ام لا ؟ .

مرقت عربة مسرعة كالسهم ، وفى تثاقل جرجر قدميه متجها لنهاية الشارع مبتعدا عن المنزل ، اضواء المصابيح الرتقالية الشاحبة تلقى ظلال اعمدتها على الرصيف ، توقف ثم لوى عنقه والتوى معه قلبه ناظرا للشرفة التى ما زال ينبعث منها الضوء .. منعذب هذا الرجاء .. هل يمكن ان يخرج أبوه للشرفة مراه ؟ دار نصف دورة بقدميه فاستدار جسمه الضخم الى المنزل ، اغرورقت عيناه بالدمع وهو ينظر هناك معذب هذا الرجاء .. هل يراه ؟ يا ليته يخرج ، جذب نفسا عميقا ثم صافحت عيناه الأرض .. ونظر الى باب العمارة الحديدى البارد كالكبرياء .. لعله عائد من مشوار مع زوجته .. زوجته ؟ وما شكلها ؟ وتجمعت فى نفسه احاديث متفرقة واقاويل منهما من اقاربه ، وتخيلات من رأسه ، فيضق فى اشمئزاز « تفو » وحث الخطى وقد اخفى ظهره عائدا لمنزل أمه تتابع دموعه متدفئة مجراها البارد على وجنتيه .. تابع مسيره بالشارع ظلك .. ظلك .. فى ساعة متأخرة بالليل .. ظلك .. ظلك .. القلب يسعى متقبل بالحزن .. ظلك .. ظلك ..

ارداد الليل كثافة .. وارتعش نجم صغير فى ركن السماء .. قطرات مطر خفيفة تبلل الأرض .. ظلال المصابيح على الرصيف .. أضواؤها البرتقالية الشاحبة مرتجفة ..

عاد يلتفت برأسه الى تلك النقطة التى ما زال ينبعث منها الضوء وتساءل .. ترى هل تناول عشاءه ؟ وكيف ؟ الم يتعشى .. وهل يا ترى ما زال يذكره ؟ .